الذى نعمـــله

للأستاذ عباس محمود العقاد

جاءتنى من الأديب صاحب الامضاء رسالة يقول فى ختامها :

« . . . قد رأيت بما لى من حق طالب العلم على أستاذه أن أطلب إلى سيدى الأستاذ أن يتبع هذا المقال بنفحة أخرى تبين لنا ما نعمله لنبلغ من أمرنا ما نريد ، وأرجو ألا يعتبر منى هذا اقتراحا أو ما فى معناه ، وإنما هو محض استزادة من خير علمك العميق النظيف . . . . »

احمد حنفى نصار القوصى

* * *

وهذا سؤال حقيق بأن يسأل ، وكنت أود أن يسأل ، فهو حقيق بأن يجاب

وجوابى للأديب أن حاجتنا الكبرى إنما هى أن نعلم كيف نريد لا أن نعلم كيف نعمل . فاذا أردنا عملنا ؛ وكل مريد عامل وعارف بوسيلته إلى إنجاز مراده

مضى زمن والناس يتحدثون عن الارادة والعمل كأنهما قدرتان مفصولتان ، وعن العاطفة والفكر كأنهما شيئان لا يتلاقيان ، وعن الخيال وفهم الواقع كأنهما ملكتان نقيضتان ، إلى آخر ما يفرقون ويقابلون بين ملكات الطبائع وخصائص الأذهان . وهذا خطأ فى تصوير الحقائق يتبعه لا محالة خطأ فى تصوير العلاج والاصلاح

ليست الارادة والعمل ولا غيرهما من الملكات والطبائع خطين متلاحقين يبدأ أحدهما عند نهاية الآخر ، أو جسمين متحيزين لا يجتمعان فى مكان واحد ، وإنما هما مظهران من قوة النفس يصدران عن معين لا يتجزأ ولا ينفصل بالحدود والمعالم . فاذا امتلأت النفس بالقدرة على الارادة فقد امتلأت بالقدرة على العمل فى وقت واحد وفى صورة واحدة ؛ ولن يفشل الفاشل فى عمله - وقد تهيأت للعمل أسبابه - إلا لأنه ناقص الارادة

أرأيت إلى الناس وهم يطلبون السيادة ولا يبلغها منهم إلا قليل ؟ ما بال قوم منهم يبلغونها وأقوام ينكلون عنها خاسئين ؟

إنما يبلغها من بلغ لأنه أرادها ولم يرد غيرها . فهو سيد وإن تراخى الزمن دون الاقرار له بالسيادة ؛ وهو سيد لأنه لن يكون عبداً وإن أخطأته الذرائع إلى حين

أما الذى يبغى أن يسود ولا يأبى أن يكون عبدا فأين هو من إرادة السيادة ؟

وأما الذى يبغى أن يسود ولا يختلف عنده مقام السيد الرفيع ومقام العبد الذليل فأين هو من إرادة السيادة ؟

وأما الذى يبغى أن يسود ويحسب أن الناس يسودونه قبل أن يسود عليهم فأين هو من إرادة السيادة ؟

قل إنه يتمنى أن يسود ، أو قل إنه يحلم بأن يسود ، أو قل إنه لا يكره أن يسود ؛ فأما أنه يريد فمعاذ الارادة أن تجتمع ونقيضها فى عزيمة واحدة ؛ ومعاذ الارادة أن تجتمع ولا يتبعها عمل ولا يتبع العمل نجاح .

لماذا لا نعمل ؟ لأننا لا نريد ! ولماذا لا نريد ؟ لأن زادنا من الحس والوعى والخيال قليل

ومع هذا نحن لا نُزهى بشىء كما نزهى بفرط الحس وفرط الوعى وفرط الخيال . . فهل رأيت إلى بعد ما بين الحقيقة والدعوى ، وبعد ما بين وصف الداء ووصف العلاج ؟ !

املأ النفس بالحس والوعى والخيال تملأها بالحركة والارادة غير منفصلين . وانظر إلى الطفل الدارج لماذا لا يهدأ ؟ ألانه قرأ الفصول والمباحث فى فضل الحركة والنشاط ؟ ألأن أحداً أمره أو أحداً أغراه ؟ كلا ! ولكنه يتحرك وينشط لأنه شبعان من الحس شبعان من ارادة العمل الذى يهواه . ولو سبب غير ذلك دعاه إلى الحركة والنشاط لما استجاب . إذا أحسسنا لم نصبر على الركود ، وإذا نفضنا الركود فماذا أمامنا غير الحركة والعمل ؟ وماذا أمامنا غير الظفر والفلاح ؟

لنس كل النسيان وأشد النسيان أننا - معاشر الشرقيين

قوم مصابون بفرط الحس والوعى والخيال . فاننا لأبرأ الناس من هذا المصاب إن كان مصاباً . وإننا لأحوج الناس إلى هذا الشفاء ، وهو شفاء

وآية ذلك أن نسأل كم عدد المعبرين عن الحس والخيال فى الشرق كله ؟ وكم عدد هؤلاء فى أمة واحدة من أمم الدنيا المريدة العاملة ؟

كم فى أمة واحدة من أمم الدنيا المريدة العاملة السيدة الأيدة من مصورين ومثالين ؟ وكم فيها من موسيقيين ومنشدين ؟ وكم فيها من ممثلين ومخرجين وكتاب روايات وشعراء وأدباء ؟ وكم فيها من متاحف وتماثيل ؟ وكم فيها من باعة أزهار وأساتذة تجميل ؟ وكم فيها من مغامرين مقامرين يبيعون الواقع بالخيال ، ويستغنون عن الممكن الميسور بما يلوح للعاجزين كأنه محال؟

كم من هؤلاء فى أمة واحدة وكم منهم فى الشرق كله هذا الزمان وأخشى أن أقول فى جميع الأزمان ؟

إن لم تكن الحقيقة أن الشرق مسكين غاية المسكنة مدقع غاية الادقاع فى ازواد الحس والخيال ، فالأسطورة الكبرى ولا ريب هى أنه مسرف فى حسه وخياله ، مفرط فى شطحاته وآماله .

فما بالنا نحار كيف نعمل ، وأولى بنا أن نحار كيف نحس ونتخيل ؟ وما بالنا ننشد أسباباً للحركة والعمل غير أن نملأ نفوسنا بالاحساس كأنما هذا وحده غير كاف ؟ وكأنما نحتاج بعد الاحساس إلى مزيد ؟

إن الانسان ليثور من السخط والغضب حين ينظر إلى فقرائنا العجزة المعدمين وهم يتيهون من الغنى الموهوم ، ويتغطرسون بالثراء المعدوم . واسمعهم يتغنون بالحب مثلا والحب فيض فى الشعور واتساع فى آفاق الوجدان ؛ واسمعهم يتغنون به وهو صنوف صنوف صنوف لا تنحصر فى معنى واحد ولا فى نمط فريد : حب الناشئين غير حب الكهول ، وحب التفاهم والتعاطف غير حب المتع والشهوات ، وحب المرأة المطواع اللعوب غير حب المرأة العصية الشموس ، وحب المنكوب اللاجىء إلى حرم العاطفة غير حب السعيد الناعم بما فى يديه ، وحب الواثق غير حب المرتاب ، وحب الوسيمة القسيمة غير حب الرشيقة الظريفة ، وحبك الأول غير حبك بعد تجربة ومراس ، وصنوف غير ذلك تتعدد بعداد الرجال والنساء وعداد الأحيان والأعمار والمناسبات .

اسمعهم يتغنون بهذه العاطفة الشاملة الداوية العميقة الرحيبة التى لا عداد لها بالألوان وان عدت باللفظ فى كلمة واحدة ، وقل لى ماذا تسمع غير نغمة واحدة معروضة فى شتى أساليب ؟ ماذا تسمع غير أن حبيبة هاجرة أبدا وحبيبا سيموت أبدا وفوق ذلك قطرات هنا من دموع وشهقات هناك من أنين ؟

ودع هذا واسمع المنشد أو المنشدة لا يكادان يفرغان من نغمة مبدوءة حتى يتبعهما ضجيج وزعيق وقرع وخبط وتصفيق كله نشوز واختلاط ومنافاة أبعد المنافاة لسماع الألحان والأنغام . وقل لى : هل تصدق أن هؤلاء السامعين يستمعون إلى موسيقى ويصغون إلى فن وينعمون بتعبير جميل وتنسيق لا يطيق الاختلال ؟

فأما الموسيقى والنشوز والخبط والزعيق فمحال أن يجتمع هواها فى أذن واحدة فى لحظة واحدة ؛ وأما الذى يجتمع مع النشوز والخبط والزعيق فهو تخبط الجسد المحموم بحمى البهيمية لا تمييز فيه ولا ذوق ولا خيال

علم الله ما أصغيت إلى جمع من هؤلاء الناعقين الناهقين ولا توسمت ما يزهون به من « حساسة » وظرافة الا تلمست فى يدى موضع السوط ألهب به تلك « الحساسة » وأطير به تلك « الظرافة » ، وأثبت لهم بالسوط وحده — ولا اثبات بغيره لأمثال هؤلاء — أنهم بلداء بلداء بلداء ، وأنهم يغثون النفوس من فرط كونهم بلداء غارقين فى بلادة لا تفيق

* * *

لا يا أساة الشرق الحزين والمشفقين عليه !

داووه من نقص الاحساس لا من فرط الاحساس ؛ وداووه من ضنانة الخيال لا من سرف الخيال

وعلموه أن يحس تعلموه أن يريد ؛ ومتى تعلم أن يريد فلا حاجة به وراء ذلك إلى تعليم

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

جلسة عائلية

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

« عمى . ! »

فلم أجب ، ولم ألتفت ، فكأن النداء كان لغيرى ، ومضيت فى كلامى مع صاحبتى ، وكان الهواء طول النهار راكداً ، والحر شديداً ، ثم بدأ الجو يطيب ، والجلسة تحسن ، فى هذه الصحراء النائية التى لم يكن يخطر لى أن يهجم على أحد فيها من أهلى .

« عمى . . . »

فأيبت أن أشعر أن النداء لى ؛ فقالت صاحبتى : « ألا تسمع ؟ »

ولم يكن ثم شك فى أني أنا العم المقصود ، فقلت : « سامع » وفاهم . . . »

« عمى . أنت هنا ؟ من الصبح أناديك »

فوقفت — فما بقى من هذا بد — والتفت إلى الصغيرة التى بح صوتها وقلت : « هل سمعتك تنادين عمك ؟ »

قالت : « طبعاً . . لى نصف ساعة وأنا أفعل ذلك »

قلت : « هل تريدين منى أن أبحث لك عنه ؟ . . أناديه معك ؟ ان صوتى مع الأسف خافت . خفيض جدا . . .

لا يذهب إلى أكثر من متر . يصلح للهمس فقط . فى الأذن »

فضحكت الصغيرة وقالت : « ماذا تقول ياعمى ؟ لماذا تتكلم هكذا ؟ »

قلت : « عمك ؟ أنا ؟ أنا عمك ؟ » .

قالت : « بالطبع . . ألا أعرف عمى ؟ » وضحكت .

قلت : « واثقة ؟ » .

قالت وهى لا تزال تضحك وقد راقها كلامى : « جدا » .

قلت : « ولا شك عندك » ؟

قالت : « أبدا » .

قلت : « ولا رغبة فى الشك ؟ »

قالت : « كلا » .

قلت : « يعنى أن لى أخاً أنت بنته فانا عمك ؟ »

قالت : « آه » .

قلت : « بهذه السهولة ؟ بلا تردد أو مناقشة أو بحث ؟ . وا أسفاه ! . ألحق أن روح البحث العلمى ينقص الجيل الجديد »

قالت : « ماذا تعنى ؟ »

قلت : « يابنت أخى — أظن أنه لا شك عندك فى هذا — إن الذى أعنيه هو أن المسألة تحتاج إلى تمحيص قليل ، وأن التسليم بهذه السهولة ليس من أخلاق العلماء . تفضلى واجلسى فان الجلوس أعون على البحث السديد » .

فجلست وطلبت لها شيئاً من عصير البرتقال ، فهو خير ما يشرب فى هذا المكان وفى مثل ذلك الجو وعرفتها بصاحبتى ثم قلت لها :

« نعود الآن إلى عمك »

فقالت : « ماله ؟ »

قلت : « لا شىء به . كان الله فى عونه . هل تعرفين ابن الرومى ؟ »

فابتسمت صاحبتى وقالت الصغيرة « ابن ال ؟ ابن إيه ؟ »

قلت : « مسكين ابن الرومى ! . ألم تسمعى به قط ؟ »

قالت : « لا . . أبداً . . أين هذا ؟ »

قلت : « مات من زمان » .

قالت : « وكيف أعرفه وقد مات من زمان ؟ »

ولقد يسأل السائل من جديد : ومن لنا أن نثبت فيه الحس المأمول ؟ وجواب ذلك سهل فى التعبير ، ولا أزعم أنه سهل فى الانجاز والتحقيق

جواب ذلك ان الحس لا يخلق خلقاً ولكنه يتعهد بالحث والايقاظ إن أصابه جمود ورانت عليه ثقلة الكسل والجثوم

وليس أنجع فى الحث والايقاظ من تصحيح الأجسام وتصحيح الأذواق : تصحيح الأجسام بالرياضة الصالحة القوية ، وتصحيح الأذواق بالفنون الجميلة الرفيعة ؛ ومن صح جسده وحسن ذوقه فلن يفوته الشعور بما حوله ؛ ومن شعر بما حوله فماذا يبقى له إلا أن ينشط ويعمل ، وإلا أن يريد وينجز ما يريد ؟

عباس محمود العقاد

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com